شيوخ الأزهر في عهد محمد علي

د. مالك محمد أحمد رشوان

كان الجامع الأزهر من غرس الدولة الفاطمية أينع ثمرة وتجددت نضرته علي كر العصور ومازال بعد نيف وألف عام أعظم الآثار الباقية التي خلفتها الدولة الإسلامية بمصر .

وتاريخ الأزهر وشيوخه هو جزء من تاريخ مصر فلايستطيع من يتصدي لدراسة تاريخ مصر في أي عصر من العصور أن يلقي الضوء كاملاً علي هذا التاريخ دون التعرض بالدراسة لذلك الجزء الهام من المجتمع المصري والذي شهدت علاقته بالادارة مداً وجزراً علي كر العصور .

وسوف يقتصر حديثنا في هذا البحث علي شيوخ الأزهر ـ ذلك المنصب الهام لدي الحكام والعامة ـ في فترة حكم محمد علي باشا والتي شهدت قيام مصر العربية الحديثة .

وقد شهدت فترة حكم محمد علي باشا (١٢٢٠ : ١٢٥٧ هـ ـ ١٨٠٥ : ١٨٤٠م) تولي سبعة شيوخ للجامع الأزهر هم :ـ

١ ـ الشيخ عبد الله الشرقاوي الشافعي من ١٢٠٨ : ١٢٢٧ هـ ـ ١٧٩٣ : ١٨١٢ م .

٢ ـ الشيخ محمد الشنواني الشافعي من ١٢٢٧ : ١٢٣٣ هـ ـ ١٨١٢ : ١٨١٨ م.

٣ - الشيخ محمد أحمد العروسي الشافعي من ١٢٣٣ : ١٢٤٥ هـ
١٨١٨ : ١٨٢٩م ٠

٤ - الشيخ أحمد بن علي الدمهوجي الشافعي من ١٢٤٥ : ١٢٤٦ هـ
١٨٢٩ : ١٨٣٠ م ٠

٥ - الشيخ حسن بن محمد العطار من ١٢٤٦ : ١٢٥٠ هـ
١٨٣٠ : ١٨٣٤ م٠

٦ - الشيخ حسن القويسني الشافعي من ١٢٥٠ : ١٢٥٤ هـ
١٨٣٤ : ١٨٣٨ م ٠

٧ - الشيخ أحمد عبد الجواد الشافعي من ١٢٥٤ : ١٢٦٣ هـ
١٨٣٨ : ١٨٤٧ م٠

ولقد لعب كل شيخ من هؤلاء الشيوخ دوراً محدداً وواضحاً في السياسة المصرية حسبما اقتضت ظروف الباشا وادارته التي سيطرت علي أزمة الأمور في مصر في ذلك الفترة ٠

(١) الشيخ عبد الله الشرقاوي

١٢٠٨ : ١٢٢٧ هـ - ١٧٩٣ : ١٨١٢ م

تولي محمد علي باشا حكم مصر في صفر ١٢٢٠ ه / مايو ١٨٠٥ م وقد امتدت الظروف التي ساعدت محمد علي علي تولي حكم مصر إلي ما قبل تلك الفترة ٠٠٠ فلم يكن مصري المولد ولا شرقي النشاة وإنما أتي محمد علي إلي مصر مع الجيش العثماني الذي خف لنجدة مصر ضد هجوم نابليون بونابارت ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ٠

وسنسير مع الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر الذي كان معاصرا لتلك الأحداث حتي نقف علي مدي مشاركة الأزهر وشيوخه في صنع القرار المصري في تلك الفترة .

مولده ونشأته وأساتذته

لم تشر المصادر التاريخية المعاصرة إلي تاريخ ميلاد الشيخ الشرقاوي وانما ذكر الجبرتي (١) تاريخا تقريبيا لذلك المولد فقال (.... ولد ببلدة تسمي الطويلة بشرقية بلبيس بالقرب من القرين (٢) في حدود الخمسين بعد المائه (٣) وتربي بالقرين ،فلما ترعرع وحفظ القرآن وقدم إلي الجامع الأزهر وسمع الكثير من الشهاب بن الملوي ، والجوهري ، والحفني ، وأخيه يوسف والدمنهوري (٤) والبليدي وعطية الأجهوري ومحمد الفارسي وعلي المنسفيسي الشهير بالصعيدي ، وعمر الطحلاوي ، وسمع الموطأ فقط علي علي بن العربي الشهير بالسقاط وبآخره تلقن السلوك والطريقة علي شيخنا (والكلام للجبرتي) الشيخ محمود الكردي ، ولازمه وحضر معنا في أذكاره

(١) عبد الرحمن الجبرتي ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ ٣ صـ ٣٧٥ ـ دار الفارس للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان لم تذكر سنة الطبع .

(٢) القرين من أعمال محافظة الشرقية بالقرب من حدودها الشرقية مع محافظة الاسماعيلية .

(٣) حوالي ١٧٣٢ ميلادي .

(٤) الذي شغل منصب شيخ الأزهر في الفترة ١١٨٢ : ١١٩٠ هـ ـ ١٧٦٧ : ١٧٧٦ م .

وجمعياته ودرس الدروس بالجامع الأزهر وبمدرسة السنانية بالصنادقية وبرواق الجبرت والطيبرسية وأفتي في مذهبه وتميز في الإلقاء والتحرير) .

وللشرقاوي مؤلفات دالة علي سعة علمه وفضله ، من ذلك حاشيته علي التحرير وشرح نظم يحيي العمريطي وشرح العقائد المشرقية والمتن له أيضا ، وقد ألف شرحاً مختصراً في العقائد والفقه والتصوف وقام بشرح رسالة عبد الفتاح العادلي في العقائد ومختصر الشمائل وشرح رسالة في لا إله إلا الله ورسالة في مسألة أصولية من جمع الجوامع وشرح الحكم والوصايا الكردية في التصوف وشرح مختصر المغني في النحو (١) .... وغير ذلك .

ولما أراد الشرقاوي السلوك في الطريقة الخلوتية ولقنه الشيخ الحفني الأسم الأول حصل له وَلَهٌ .. ثم عاد ولازم القراءة والإفادة وتلقن من الشيخ محمود الكردي ... وواظب علي مجالسته وكان في قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة ، ولما عرفه الناس واشتهر ذكره واصله بعض تجار الشوام وغيرهم فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه ...

وقد تولي الشيخ الشرقاوي مشيخه الأزهر بعد وفاة الشيخ أحمد بن موسي بن داود أبو الصلاح العروسي الشافعي الأزهري في سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م (٢)

---

(١) انظر - عبد الرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره جـ ٣ صـ ٢٧٥ وما بعدها .

(٢) توفي في الحادي والعشرين شعبان سنة ١٢٠٨ هـ -

الأزهر والحملة الفرنسية

لبث الأزهر في ظل الحكم العثماني سائرا في طريقة قائما بمهمته العلمية بالرغم مما كان يحيط به من الصعاب ويعتريه من اسباب الضعف المادية والأدبية وظلت الحيوية كامنة بين جدرانه وبين شيوخه وطلابه تنتظر الهزة التي توقظها ، والشرارة التي تضرمها ·

وقد شاء الله أن تداهم القوات الفرنسية قاهرة المعز وحصنها الأزهر في أول يوليه ١٧٩٨م (١٧ محرم ١٢١٣ هـ) ونزلت القوات الفرنسية أولا بالاسكندرية ومنها إلي دمنهور فالقاهرة ··

وقد حرص نابليون علي عدم اثارة المشاعر الدينية لمسلمي مصر بل قل إنه أراد أن يكسب ولاء الأزهر ومشايخه كأكبر القوي النشطة في المجتمع المصري آنذاك ـ ولذا فإنه وجه منشوراً إلي الشعب المصري بدأه بقوله (بسم اللهالرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد ولا شريك له في ملكه ···) ويشير ذلك المنشور إلي أن نابليون قد أتي ليضع زمام الأمور في أيدي علماء مصر ، وعقلائها ويقول : (أيها المشايخ والقضاة ··· قولوا لأمتكم إن الفرنسوية هم أيضا مسلمون ومخلصون ··) وجاء في المادة الخامسة من مواد هذا المنشور [1] قوله : (··· الواجب علي المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلي كل أحد من أهالي البلدان أن يبقي في مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع علي العادة ····) [2]

(١) انظر النص الكامل لهذا المنشور ـ في ـ عبد الرحمن الجبرتي المرجع السابق جـ ٢ صـ ١٨٢ ـ ١٨٥ ·
(٢) عبدالرحمن الجبرتي ـ المرجع السابق ـ جـ ٢ صـ ١٨٤ ·

وهنا يبدو الأزهـر في ثوبـه الأسلامي الأصيل غداة كل محنة،ثوب القيادة الشعبية والزعامة الوطنية ففي صباح أول صفـر ١٢١٣ هـ / يوليه ١٧٩٨ م اجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتباحثوا في الأمـر واتفقوا علي إرسال رسالة إلي نابليون يستوضحون مقاصده ، وقد أسفرت المحادثات عن اصدار خطاب أمان لأهل مصـر ثم طلـب نابليون حضور المشايخ والزعماء ليوءلف منهم ديواناً لتدبير الأمـور فأطمأن الناس وعاد معظم الفارين ..... وفي يوم ١٣ صفر ١٢١٣ هـ)٢٥ يوليه ١٧٩٨م) استدعي نابليون المشايخ لمقابلة وعلي رأسهـم الشيخ الشرقاوي (شيخ الجامع الأزهر) وأسفر اجتماعهم عن تأليـف ديوان يشرف علي حكم القاهـرة وتدبير شئونها [١] فوقع الاتفـاق علي أن يتكون المجلس علي النحو التالي :-

١ - الشيخ عبد الله الشرقاوي (رئيسا) .

٢ - الشيخ خليل البكري .

٣ - الشيخ مصطفي الصاوي .

٤ - الشيخ سليمان الفيومي .

٥ - الشيخ محمـد المهـدي .

٦ - الشيخ موسي السـرسي .

٧ - الشيخ مصطفي الدمنهوري .

٨ - الشيخ يوسف الشبرخيتي .

٩ - الشيخ أحمد العريشي .

---

(١) محمد عبد الله عنان - تاريخ الجامع الأزهر - ط ثانية - الخانجي ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م صـ ١٥٤ ، ١٥٥

١٠ - الشيخ محمد الدواخلي (١)

وقد ضمت اجتماعات الديوان بعض الشخصيات التي تطلب الأمر حضورها كالقاضي ووالي الشرطة ، وأمين الاحتساب وكان اشتراك هؤلاء بإشارة أرباب الديوان (المشايخ الذين سبق ذكرهم) .

وكان اجتماع ذلك الديوان في منزل رئيسه شيخ الأزهر الشيخ الشرقاوي وإذا كان أول ديوان لحكم مصر تحت الاحتلال الفرنسي قد شهد عضوية معظم كبار العلماء وتوج شيخ الأزهر رئيسا له فإن هذا لا يعني انفراد هؤلاء بسياسة أمور البلاد ، وإنما كانت سلطتهم محدودوخاضعة لتوجيه المحتلين ولكن تأليفه علي هذا النحو يحمل تلميحاً واضحا علي أهمية الجامع الأزهر ومكانة العلماء واعترافا ضمنيا بزعامتهم الشعبية .

---

(١) يذكر محمد عبد الله عنان - تاريخ الجامع الأزهر - أن المرسوم الفرنسي الصادر بهذا الشأن تضمن أسماء ثلاثة غير الثلاثة الذين وردت اسماؤهم أخيراً فحذفت منه أسماء الدمنهوري والشبرخيني والدواخلي وحلت محلهم أسماء الشيخ السادات ، والشيخ عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الأمير ..... وربما اكتفي الجبرتي الذي عاصر الأحداث بذكر من حضروا الاجتماع حيث كان نقيب الاشراف والشيخان الآخران غائبين عن اجتماع نابليون . انظر الجبرتي - المرجع السابق جـ ٢ صـ ١٩٤ ، ومحمد عبد الله عنان - المرجع السابق صـ ١٥٤ ، صـ ١٥٥ ...

ونظراً لأن الشعب في القاهرة قد اعتاد علي إعلان غضبته أمـــام العلماء والمشايخ وعلي أعتاب الأزهر فلم يفت في عضدهم الســـــلاح الفرنسي المشهر أمامهم ولم يقلل من عزمهم مسلك نابليون في تكريمه للمشايخ .. وعلي أثر ازدياد الاضطهاد الفرنسي ثار الناس ولجأوا إلي الجامع الأزهر وسرعان ما تكونت نواة الثورة ضد الاحتـــــلال الفرنسي وأخذ المحتشدون في فناء الأزهر يهتفون بالثورة والقتـــال يوءمهم في ذلك الكثير من المشايخ ـ من خارج الديوان ـ .

وقد أراد ديبوي ـ حاكم القاهرة ـ عبثا تهدأة الثوار فلم يجـــد إلي ذلك سبيلا وترامت الأخبار إلي نابليون الذي سرعان ماأدرك أن بوءرة الشعور لدي الشعب المصري تكمن في الأزهر فأمر بنصـــب المدافع علي المقطم لضرب الأزهر ...

وقد أراد أعضاء الديوان التوسط لدي نابليون الذي أصدر أوامره بضرب المناطق المجاورة للأزهر فاستمع الي نصحهم فلما عادوا إلـــي الجموع الغفيرة المتشبثة بالأزهر لم تجـد اقتراحاتهم لديها إجابة .. بل أن المتجمهرين منعوا المشايخ من دخول الأزهر .. وحينئذ وضـــع نابليون خطة لاقتحـام الأزهر (١) .

وفي يوم الثلاثاء ١٣ جمادي الأولي ١٢١٣ هـ / ٢٣ اكتوبر ١٧٩٨ م اقتحم الجند الفرنسيون بخيولهم وعتادهم الأزهـــر وقاموا بضرب المتجمعين دون مراعاة لحرمته الدينية والعلمية ... وقد قام الفرنسيون بمنـــع العلماء والطلاب من دخول الأزهر وانتشرت الجنود في الأحيـــــاء

(١) محمد عبد الله عنان ـ مرجع سبق ذكره ـ صـ ١٥٩ .

المجاورة تنهب البيوت بحجة البحث عن السلاح وتمنع الناس من قضاء مصالحهم وتعبث بالممتلكات وتقبض علي الابرياء واضطر كثير من الناس إلي الهروب فراراً بأنفسهم .....

ويصف الشيخ الشرقاوي تلك الأحداث بقوله [1] (إن الفرنسيس قتلوا من علماء مصر نحوثلاثة عشر عالما ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة التالية وقتلوا فيه بعض العلماء ونهبوا منه أموالاً كثيرة و ... نهبوا اكثر البيوت التي حول الجامع ونشروا الكتب التي في الخزائن يعتقدون أن بها أموالاً وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتباً ومصاحف نفيسة) .

وشهد شهر جمادي الأولي ١٢١٣ هـ / اكتوبر ١٧٩٨م صدور عدد من المنشورات علي لسان مشايخ الديوان بإيحاء من الإدارة الفرنسية يدعون الناس فيها إلي الخلود للسكينة وعدم تحريك الفتن وعدم طاعة المفسدين ولم تخل المنشورات من المدح والإطراء علي نابليون بونابابرت [2] .

وإذا كانت المنشورات قد صدرت بإيحاء من قادة الحملة الفرنسية ـ كما أسلفنا ـ فإنها تحمل في مضمونها الأهمية البالغة التي علقها الفرنسيون علي مشايخ وعلماء الأزهر وتوضح أن الفرنسيين قد أدركوا مدي تأثير هؤلاء المشايخ علي القوي الشعبية المؤثرة في المجتمع المصري ...

---

(١) الشيخ عبدالله الشرقاوي ـ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين . ص ٦٦

(٢) عبد الرحمن الجبرتي ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ٢ صـ ٢١٥ ومابعدها

وقد أدي تذمر الأهالي وما تبعه من إجتياح بربري للأزهر إلي تعطيل الديوان بعد أن قامت السلطات الفرنسية باعدام خمسة أو ستة من كبار مشايخ [١] الأزهر بعيداً عن أعضاء الديوان - دون استجابة للنداءات الإنسانية .

وقد اقترن ذلك التذمر بتعطيل الديوان وسرعان ما ألف نابليون ديواناً غيره رفع عدد أعضائه إلي ستين عضواً وقد تضمن هذا الديوان عشرة شيوخ علي رأسهم الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر ومثلت فيه كل الطوائف وأصبحت دورات انعقاده حسب الاقتضاء فقط ، ومن بين أعضاء الديوان الكبير - العام - أختير أربعة عشر عضواً تألف منهم ، الديوان الخصوصي والخاص - وهو الديوان النشط الذي ينعقد يومياً للنظر في مصالح الناس وتوفير أسباب السعادة والرفاهية لهم وقد تضمن الديوان الخاص خمسة من الشيوخ العلماء هم الشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ مصطفي الصاوي ، والشيخ سليمان الفيومي ، والشيخ خليل البكري وأسندت رئاسة هذا الديوان إلي الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الأزهر [٢]

وظل الحال علي ما هو عليه حيث اتجه نابليون بحملته الفاشلة نحو الشام وعلي أثر عودته وصلته أنباء مقلقة من أوربا فاعتزم مغادة مصر فغادرها في شهر ربيع الأول سنة ١٢١٤ هـ / أغسطس ١٨٩٩ م [٣] بعد أن ولي أمر القيادة إلي كليبر [٤] ،

---

(١) محمد عبدالله عنان - مرجع سبق ذكره - صـ ١٦٤
(٢) عبد الرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره جـ ٢ صـ٢٣٧، ٢٣٨
(٣) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ٢ صـ ٣٠١ ، ٣٠٢
(٤) هو جان باست كليبر أحد مشاهير قواد الحملة الفرنسية ولد في استراسبورج في ١٧٥٣م وخدم بعد الثورة الفرنسية

وقد ظل الأزهر منذ اقتحام الفرنسيين له في حالة اضطراب شديد وتفرق الكثير من شيوخه وطلابه وركدت حلقات دروسه وقام الفرنسيون بفرض رقابة شديدة علي ما يحدث فيه ومن حوله من تحركات ..

وبينما كان الفرنسيون يثبتون دعائم ادارتهم بمصر كان الاسطول الانجليزي يحاصرهم بعد أن فرض رقابة علي الموانى المصرية كما كانت القوات العثمانية تواصل زحفها عن طريق سيناء لطردالفرنسيين من مصر مما جعل كليبر يوافق علي شروط اتفاقية العريش ، ولكن الانجليز آنذاك صمموا علي اعتبار الفرنسيين أسري حرب وخروجهم من مصر علي تلك الصورة ، وفي تلك الأثناء شهدت مصر حادثة اجتذبت الأضواء وسيطر أمرها علي حديث الناس تلك هي مصرع كليبر ..

الأزهر ومصرع كليبر

تولي كليبر إدارة مصر عقب رحيل نابليون وقد اتخذ من قصر الألفي مقراً لسكناه واتخذه مركزاً للقيادة ، ولكنه أثر البقاء في الجيزة في بداية حكمه حتي يطمئن علي المركزالعام لأركان حرب الجيش الفرنسي ـ وفي يوم السبت ٢١ محرم ١٢١٥ هـ / ١٤ يونيه ١٨٠٠م كان كليبر يتفقد قصر الألفي ومعه المسيو بروتان كبير المهندسين إذ وثب عليه شاب فطعنه عدة طعنات أردته قتيلا ....

=== في جيش الجمهورية وقدم مع بونابارت إلي مصر قائداً لإحدي الفرق وصحبه إلي سوريا وأبلي بلاءً حسنا في موقعة غزة ثم عين قائداً لحامية دمياط ....

وحاول بروتان عبثا الدفاع عنه فطعنه الشاب عدة طعنات (١)

وتواثب الحراس من كل ناحية واشتد الضجيج والاضطرابات وبعد بحث ونخر عثر الحراس علي شاب بدت عليه الريبة واعتقدوا أنه القاتل .

وقد ظهر من الأستجواب الأول أن الشاب المقبوض عليه يسمي سليمان الحلبي وأنه ولد في حلب بالشام وعمره أربعة وعشرون سنة وقد قدم إلي القاهرة ونزل بالجامع الأزهر ودلّ التحقيق علي ان سليمان هو أحد أبناء الأزهر القدامي كما أن علاقته كانت وثيقة بالكثير من مشايخ الأزهر وعلمائه وكأن ما قام به سليمان يعتبر ثأراً للأزهر عما حل به علي يد جند الحملة الفرنسية .

وقد أصدرت المحكمة المكلفة بنظر قضية مصرع كليبر حكمها بإعدام سليمان الحلبي وعدد من شيوخ وعلماء الأزهر الذين تصورت المحكمة أنهم علي صلة بتلك القضية .

ولم تستطع الادارة الفرنسية بالقاهرة الفصل بين مقتل كليبر ودور الأزهر وشيوخه في ذلك فبالرغم من اعدام أربعة من الشيوخ إلا أن ذلك كان غير كاف مما جعل مينو (خليفة كليبر) يتخذ عدداً من الإجراءات الخاصة بالأزهروالتي يمكن أن نوجزها في قولنا : هي محاولة لتضييق الخناق وتحديد الحركة لكل عالم ودارس بالأزهر مع مراقبة كاملة لحركات وسكنات هؤلاء تحسبا لتكرار ماحدث .

---

(١) محمد عبدالله عنان ـ مرجع سبق ذكره ـ صـ ١٧٤ ، صـ ١٧٥

وفي مواجهة تلك الأجـراءات لم يلبث أن استقر رأي المشايـخ برئاسة الشيخ الشرقاوي علي إغلاق الجامع الأزهر وفي شهر محـرم سنة ١٢١٥ ه / يونيه ١٨٠٠م طلب الشيخ الشرقاوي والشيخ المهـدي والشيخ الصاوي إقفال أبواب الأزهر منعاً للريبة والشكوك وقد وافـق مينو علي ذلك (١) .. وفي صباح اليوم التالي أخرج سائر المجاورين وأغلقت أبواب الأزهر .. وهذه أول مرة في تاريخه يغلق فيها بعد أن لبث منذ انشائه ثمانية قرون ونصف مفتوح الأبواب (٢) .

وبعد أن عمد مينـو إلي فرض الاتاوات والقسوة في معاملة الأهالي عاد وأعلن اسلامه وبدأ العديد من الخطوات التي أراد ان يدلل بهـا علي نواياه الحسنة نحو المصريين . ومن أهم تلك الخطوات إعـادة تشكيل الديوان ـ الموقوف ـ من تسعة شيوخ من الأزهر وعلي رأسهـم الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيسا (٣) واستمر انعقاد دورات ذلـك المجلس لنظر دعاوي المقدمة من الأهالي (٤) .

---

(١) أمين سامي باشا ـ تقويم النيل ـ الجزء الثاني (محمد علـي باشا) ط أولي صـ ١٤٩ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨م .

(٢) محمد عبدالله عنان ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٨٣

(٣) عبد الرحمن الجبرتي ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ ٢ صـ ٣٩٦ ، ٣٩٧

(٤) تقاضي كل شيخ من شيوخ الديوان التسعة أربعة عشر الف فضـة كراتـب شهري أي حوالي ٣٥٠ قرشـا .

دور الأزهر في تولية محمد علي حكم مصر

ظل الأزهر يواصل قيادته وريادته للشعب المصري وفي بداية عام ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م بدأت الاستعدادات لفتح الجامع الأزهر ثم كان افتتاحه بأداء صلاة الجمعة فيه (١)

وحينما كان الشعب المصري يعاني من قرار أتخذ أو ضريبة فرضت فإنه كان يجد في الأزهر الملجأ والمستقر الذي يعرض فيه شكواه فيقوم المشايخ بتبليغ ذلك إلي الإدارة وكثيرا ما نجحوا في وقف الكثير من الاجراءات التي مثلت معاناة للشعب المصري.

ولقد كان للأزهر وشيوخه الدور البارز في صنع القرار والتأثير في مجريات الأحداث في مصر فقد شهدت تلك القلعة اجتماع العلماء والمشايخ في ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ (١٣ مايو ١٨٠٥م) واتجه العلماء والمشايخ إلي بيت القاضي وبعد تشاور اتجهوا جميعاً إلي محمد علي وقالوا له إننا لا نريد هذا الباشا (٢) حاكما علينا ولابد من عزله من الولاية فقال ومن تريدون أن يكون واليا قالوا له لا نرضي إلا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير فامتنع أولاً ثم رضي وأحضروا له كركا وعليه قفطان وقام السيد عمر والشيخ الشرقاوي وألبساه له وذلك في وقت العصر ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة وأرسلوا إلي إحمد باشا الوالي الخبر بذلك فقال إني مولي من قبل السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين (٣)

(١) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ ٢ ص ٤٧٦
(٢) يقصد ون احمد خسروباشا الوالي علي مصر من قبل الباب العالي.
(٣) أمين سامي باشا- تقويم النيل - جـ٢ ص ١٩٢،ص ١٩٣ وعبد الرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره جـ٣ ص ٦٣، ص ٦٤، ص ٦٥

ولم تمر خطوات محمد علي نحو انتزاع السلطة من الوالي بطريق القوة بعيداً عن المشورة والمشاركة من شيوخ الأزهر فقد كانت القرارات موحدة وشارك الشيوخ والعلماء في كل الأعمال الإيجابية والتحركات العسكرية التي صحبت عملية تولي محمد علي حكم مصر.

وحينما أقر الباب العالي ما حدث في مصر من تولية محمد علي حاكما عليها كأمر واقع اعترف به نص صراحة علي أن هذا - التصرف قام به الباب العالي نظراً لرضي العلماء والرعية به ، ففي الثالث عشر من ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ هـ (١٠ يوليه ١٨٠٥م) حضر قابجي من طرف الدولة (العثمانية) ونزل بمنزل محمد علي بالأزبكية وحضر المشايخ والأعيان وقرءوا المرسوم الذي معه ومضمونه الخطاب لمحمد علي باشا والي جده سابقاً ووالي مصر حالاً .. حيث رضي بذلك العلماء والرعية (١)

ولم يقتصر دور الأزهر وشيوخه (وشيخه الشرقاوي بصفة خاصة) علي المشاركة في صنع قرار بتنصيب حاكم أو التأهب لقيام ثورة ضد محتل وإنما كان جزءاً من دأبهم محاولة تهدأة الوضع الداخلي لنشر الاستقرار في ربوع الدولة .

وقد شهدت الساحة المصرية صراعاً عنيفاً منذ تولي محمد علي باشا حكم مصر بينه وبين أفراد المماليك الذين لم يلبثوا أن استعانوا بحملة بريطانية أتت لتعيد إليهم حكم مصر وحينما عرض بعض الافراد المصرلية (المماليك) أن يقدم لهم الشيخ الشرقاوي والسيد

(١) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ٣ ص ٧٣ ، ٧٤ وأمين سامي - مرجع سبق ذكره جـ ٢ ص ١٩٥ .

عمر مكرم (نقيب الأشراف) مساعدة ضد محمد علي باشا [1] أبوا تقديم تلك المساعدة وقاموا بتحذيرهم من عواقب موقفهم الذي يفتت وحدة الشعب المصري ...

وقد أدرك محمد علي باشا خطورة رأي شيخ الأزهر علماوه ونقيب الأشراف لدي الباب العالي فقد احترم السلطان وجهة نظرهم وأقر محمد علي باشا واليا علي مصر لأنهم قد اختاروه ، كما أدرك المشايخ واعتقدوا أن محمد علي باشا هو أنسب الرجال وأكثرهم صلاحية لولاية مصر - وبخاصة في أيام حكمه الأولي التي لم يكشف فيها عن خططه الاستبدادية - وذلك نظراً لأنه قد وافق علي تولي حكم مصر مشروطاً بمشورة والأخذ برأي المشايخ والعلماء ونقيب الأشراف ، فاستغل محمد علي باشا ذلك الوزن الهائل للشيوخ لدي الباب العالي حينما أرسل السلطان فرمانا بعزله من ولاية مصر ونقله إلي ولاية سالونيك ففي ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٢٢١ هـ / يوليه ١٨٠٦ م وصل إلي مصر شاكر أغا سلاح دار مندوبا من قبل الباب العالي يبلغ محمد علي باشا عزله عن ولاية مصر وتعيينه واليا علي سالونيك وتعيين موسي باشا واليا علي مصر وقد توجه الباب العالي بخطابات تفيد ذلك إلي المشايخ ونقيب الأشراف - تقديراً لوضعهم في صنع القرار - فاتفق الباشا مع المشايخ علي ان يرسلوا رداً مضمونه .. أن أهل مصر قوم ضعاف وربما عصت العساكر عن الخروج فيحصل ضرر للأهالي وحمل شيخ الأزهر والمشايخ ونقيب الأشراف في ٢٨ ربيع الثاني ١٢٢١ هـ / يوليه ١٨٠٦ م حملوا شاكرا

(١) أمين سامي - مرجع سبق ذكره - جـ ٢ صـ ١٩٦

أغا (مندوب الباب العالي) رداً وملتمساً بابقاء محمد علي باشا واليا علي مصر (١) .

وقد دأب محمد علي باشا علي تقليص نفوذ الشخصيات المؤثرة في المجتمع المصري ويأتي شيخ الأزهر ـ الشرقاوي آنذاك ـ ونقيب الأشراف في مقدمة تلك الشخصيات التي ود محمد علي باشا تقليص نفوذها أو التخلص الكامل منها إذا وجد إلي ذلك سبيلا .. وقد أراد محمد علي باشا استغلال بعض النزاعات الشخصية في تقليص نفوذ شيخ الأزهر ، ففي ٤ رجب سنة ١٢٢١ هـ / اكتوبر سنة ١٨٠٦م أرسل إلي الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الأزهر يأمره بلزوم داره وأنه لا يخرج منها ولا إلي صلاة الجمعة وذلك بسبب ضغائن ومنافسات بينه وبين أخوانه كالسيد محمد الدواخلي والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ويعلق الجبرتي علي ذلك بقوله : وأهمل أمر الشيخ الشرقاوي ولم يجد ناصراً (٢) .

ولا يعني ذلك الأمر أن الشيخ قد جمدت حركته وأصبح غير مشارك في صنع الاحداث ، بل إن المصادر المعاصرة تطالعنا باشتراكه في الكثير من الشئون الداخلية والخارجية .

فمن الشون الداخلية ننقل حواراً دار بين الشيخ الشرقاوي ومحمد علي باشا علي أثر مناقشة حالة الشعب المصري بعد انخفاض منسوب النيل وتأثر المحاصيل الزراعية بذلك (واجتمع في يوم السبت ٢٧

(١) الجبرتي ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ ٣ ص ١٢٥ ـ ١٣٠ وكذلك تقويم النيل لابن سامي ـ جـ ٢ صـ ٢٠١ : ٢٠٣ .
(٢) عبدالرحمن الجبرتي ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ ٣ ص ١٣٤ ، وابن سامي ـ مرجع سبق ذكره جـ٢ ص ٢٠٣ ...

جمادي الثانية ١٢٢٣ هـ / سبتمبر ١٨٠٨م المشايخ عند الباشا فقال لهم اعملوا استسقاء .... وادعوا الله فقال له الشيخ الشرقاوي: ينبغي أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم ، فقال : أنا لست بظالم وحدي وأنتم أظلم مني ، فإني رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم اكراما لكم وأنتم تأخذونها من الفلاحين .... وكل من سأجده يأخذ الفرضة المرفوعة من فلاحيه أرفع الحصة عنه فقالوا له : لك ذلك . ثم اتفقوا علي الخروج والسقيا في صباح اليوم التالي من جامع عمرو بن العاص (١)

ومن الشئون الخارجية اجتماع الباشا بالمشايخ في أول المحرم سنة ١٢٢٣ هـ / مارس ١٨٠٨م ليعلمهم باستيلاء الوهابيين علي الحرم ويطلعهم علي طلب الباب العالي تجريد القوات المصرية لمحاربة آل سعود في شبه الجزيرة العربية ...

نفي السيد عمر مكرم

علي أثر فرض ضرائب جديدة ضج الناس والتجئوا إلي المشايخ والسيد عمر مكرم فوعدهم بالتحدث في هذا الشأن بعد التثبت واتفق المشايخ والسيد عمر مكرم علي عدم مقابلة الباشا لأنه تمادي في احداث الفروضات الكثيرة التي أزهقت الرعية فأرسل محمد علي باشا يطلب مقابلة المشايخ والسيد عمر مكرم فلبي الدعوة الشيخ الدواخلي والمهدي أما الدواخلي فكان نائبا عن الشيخ عبدالله

(١) عبدالرحمن الجبرتي ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ ٣ ص ٢٣٩ ، أمين سامي ـ مرجع سبق ذكره ـ جـ ٢ ص ٢١٣

الشرقاوي ، وقد أظهر الباشا أنه يميل إلي اتباع نصائح المشايخ وأنه متكدر من تخلف الشيخ عمر مكرم وعدم حضوره بعد تكرار طلبه ووقوفه دائما ضده في كل ما يفرضه علي الرعية ، ولما شدد الطلب في الاجتماع مع السيد عمر مكرم رد الشيخ بقوله إنني أقابل الباشا ولكن في بيت السادات لا في القلعة (١)

وحينئذ استقر قرار الباشا علي التخلص التام من عمر مكرم ممثل الزعامة الشعبية الحقيقية آنذاك ..

وفي ٢٧ جمادي الثانية سنة ١٢٢٤ هـ / أغسطس ١٨٠٩ نزل الباشا لمنزل ولده إبراهيم بك الدفتردار وطلب القاضي والمشايخ وطلب السيد عمر مكرم فاعتذر بأنه مريض وكان قد أحضر شيخ السادات الوفائية والشيخ الشرقاوي وأحضر الباشا خلعة وألبسها للشيخ السادات علي نقابة الاشراف وأمر بكتابة فرمان بخروج السيد عمر مكرم ونفيه من مصر في اليوم نفسه فتشفع المشايخ في إمهاله ثلاثة أيام حتي يقضي أشغاله وتقرر نفيه إلي دمياط (٢)

ويعلق أمين سامي باشا علي ذلك فيقول : أما السيد عمر فأرتاح لتخليه عما كان يتحمله من مهام المسئولية التي كانت تلقي علي عاتقه .... وكم كانت خسارة الرأي العام في مصر فادحة ليس في نفي عمر مكرم كشخص ولكن في سكوت صوت الشعب منذ ذلك التاريخ ... لقد أفسحت خطوة نفي عمر مكرم وما تلاها من مواقف

(١) عبدالرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ٢ ص ٢٦٨ .
(٢) أمين سامي - مرجع سبق ذكره جـ ٢ ص ٢١٨

سلبية وتخطيط منظم درج عليه محمد علي باشا الطريق للاستئثار بالسلطة في مصر والاستبداد وعاش المصري غريبا في بلاده منذ أن سكت صوت الزعامة الشعبية ممثلة في شيوخه وعلمائه ورجال أزهره المعمور .

وكانت خطة نفي عمر مكرم أولي معاول هدم الزعامة الشعبية الحقيقية في مصر والتي حمل عبئها المشايخ والعلماء .

ولقد راق لمحمد علي أن يسمي المصري بعد أن أستبد برأيه في الحكم ، راق له أن يطلق علي المصري (الفلاح) وعمت المجتمع المصري طبقية رهيبة رفعت حاشية الباشا وجعلت عامة الشعب (فلاحي مصر) الذين أعدوا ليكونوا جنوداً يساق بهم نحو حروب لا طاقة لهم فيها ولا جمل .... وقد ذكرت تقارير القناصل الأمريكيين في إشارتها إلي معاملة محمد علي باشا للمصريين بقولها (.. ولم يكن محمد علي يحسب حسابا للمصريين ـ فلاحي مصر The Egyption Fallah P ـ الذي أبدي احتقاره الدائم لهم) (١) .

ولسنا في مجال عرض ما كان ينبغي أن يقوم به المشايخ من دور علي أثر نفي الشيخ عمر مكرم ، ولكنا نكتفي بإيضاح الدور الهام الذي لعبه مشايخ الأزهر في السياسة المصرية في عهد محمد علي باشا.

(١) الوثائق الأمريكية ـ تقارير القناصل الأمريكيين في الأسكندرية من نيويورك إلي الاسكندرية في ٣٠ سبتمبر ١٨٣٥م الوثيقة رقم ٧ الصفحة ٥ ..

Despotches From U.s Conslues in Alexandria Roll No 1 T 45 From Nyoçovk toalexandria Septambar 1835 N 7 P 5

ولقد كان نفي عمر مكرم هو آخر الأحداث التاريخية التي كانت تنتظر دوراً هاماً يمكن للمشايخ أن يقوموا به في المعترك السياسي المصري .

ولم تظل فترة شياخة الشيخ الشرقاوي بعد أن نفي عمر مكرم حيث وافته المنية ليعتلي مشيخة الأزهر شيخ جديد .

وفاة الشيخ الشرقاوي

في يوم الخميس الثاني من شوال سنة ١٢٢٧ هـ / نوفمبر ١٨١٢ توفي الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام والمسلمين الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الأزهري الشهير بالشرقاوي شيخ الجامع الأزهر[١] بعد أن مكث حوالي تسعة عشر عاماً في مشيخة الأزهر ، وقد أقيمت صلاة الجنازة عليه بالجامع الأزهر وصلي عليه جمع كثير ودفن بمدفنة الذي بناه لنفسه ، ووضعوا علي تابوته عمامة كبيرة ..

ويذكر الجبرتي كثيرا من الأشياء التي صحبت وتلت وفاته والتي لا يتسع المجال لذكرها لعدم أهميتها من ناحية ولبعدها عن الطقوس الاسلامية التي تصحب حالات الوفاة[٢] من ناحية أخري .

وعقب وفاة الشيخ أحيط محمد علي باشا علما بذلك فترك للمشايخ أمر أختيار شيخ من بينهم ليتولي مشيخة الأزهر وبعد عدة مفاوضات استقر الأمر علي اختيار الشيخ الشنواني .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ ٣ ص ٣٨٣

(٢) للتفاصيل - انظر - عبد الرحمن الجبرتي - مرجع سبق ذكره - جـ ٣ ص ٣٧٩ وما يليها ...

وفي يوم الجمعه ١٦ شوال سنة ١٢٢٧ هـ / نوفمبر ١٨١٢م حضـــــر الشيخ الجـديد إلي الأزهـر وصلي الجمعه وحضـر باقي المشايـــــخ وعملوا الختم للشيخ الشرقاوي .... وبعد الفراغ من الختم أنشـــــد المنشد قصيدة رثاء من نظم الشيخ عبد الله العدوي المعروف بالقاضي وتوج الشيخ الشنواني شيخا للأزهـر .

دكتور
مالك محمد أحمد رشوان
مدرس التاريخ في كلية اللغة العربية
بأســـــيوط